أثر
الأسبوعية Atar
العدد (25)، الاثنين، 15 أبريل 2024م

أصوات تحت الحصار

مستورة والحمد لله!

15 أبريل 2023م - 15 أبريل 2024م

مجدي الجزولي

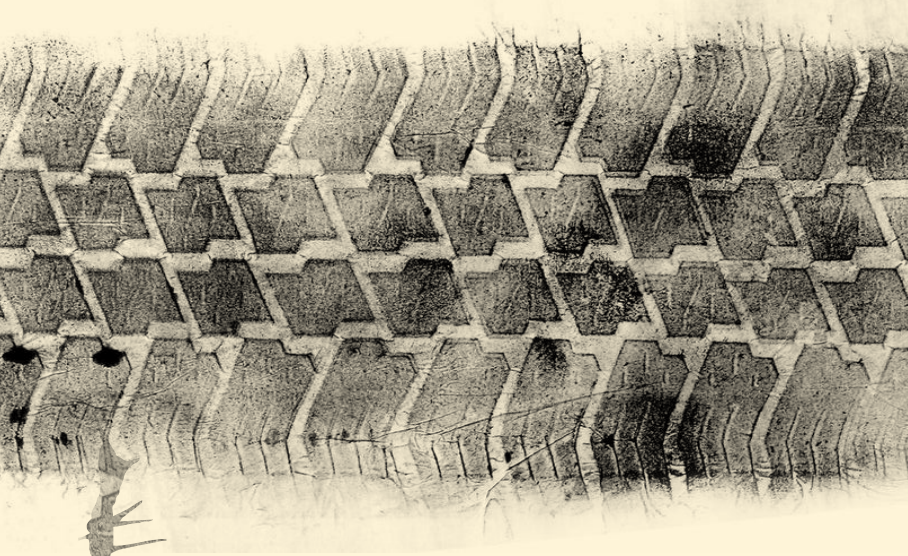

تُسطّر التقارير الإنسانية الدولية الحربَ كحدٍّ قاطع بين ضحايا وناجين، ينغ ويانغ، أرقام تتراكم من القتلى والجرحى والنازحين واللاجئين والمُغتصبات والمعتقلين والجوعى وغير ذلك من تقاسيم الهلاك والأذى. وجمع هذه الأرقام وترتيبها وعرضها صناعة بيروقراطية بحالها، هي بعض شغل المنظمات الإنسانية الدولية؛ صناعة نشأت من القِوامة الحديثة على الأجساد، وتشمل تعريف هذه الأجساد ودمغها وقياسها وتصنيفها وفرز الصالح منها من الطالح. وقاعدة هذا القياس والتبويب في كلّ حال حرثُ قوة العمل، هل تبقّى منها شيء في الجسد المُتضرّر يدرّ فائضَ القيمة أم انقطع ودخلت حساب الخسارة؟ أم هي كلّها من فائض قوة العمل التي لا لزوم لها في حقيقة الأمر، والواجب محاصرتها، حيث هي حتى لا تتسرّب إلى سوق عمل محروس بالديدبان فتُفسد ميزان عرضه وطلبه.

يُداخل هذا المنطقَ الناظمَ للصناعة الإنسانية المنطقُ الناظمُ للشوكة في الدول الكبرى، ولهذا الظلّ المُشترك بين الاثنين اسمٌ هو العقيدة في «المسؤولية عن الحماية»، الصيغة المعاصرة لعبء الرجل الأبيض وقوامته. لذلك قد ينتهي شاغل إنساني كبير إلى حملة حربية كبيرة، «لا

للحرب» إلى «نعم للحرب الكبرى». وأقرب مثال معاصر الحرصُ المُعلن على مصير أهل بنغازي خلال الانتفاضة الليبية في فبراير 2011 الذي كانت ترجمته في قاموس «المسؤولية عن الحماية» قراراً من مجلس الأمن الدولي (القرار 1973) في 17 مارس 2011 يخوّل للدول الكبرى أن تشنّ حملة حربية على ليبيا، وحدث ما حدث. وهو المجلس ذاته الذي لا يعنيه مقتل أكثر من ثلاثة وثلاثين ألف فلسطيني في قطاع غزة بالآلة الحربية الصهيونية خلال الأشهر الستة الماضية، بمعدل واحد من كل سبعين شخصاً في القطاع.

لا غرو إذن، أنّ الباب مفتوح على مصراعيه بين الوظائف العليا في المنظمات الإنسانية الدولية وبين مواقع المسؤولية السياسية في الدول الغالبة. انقلب الطبيب برنارد كوشنير، أحد مؤسسي منظمة «أطباء بلا حدود» ومنظمة «أطباء العالم» وزيراً لخارجية فرنسا (2007-2010) في عهد رئاسة نيكولاس ساركوزي، واشتهر بحماس تبشيره بما يسمى «التدخل الإنساني»، فضرب الطبول للحرب على العراق، وأنذر من موقعه - وزيراً للخارجية - إيرانَ بحرب وشيكة ما ظلّت خارج بيت الطاعة الغربي. كما تحوّلت سامانثا باور من سفيرة للولايات المتحدة الأميركية في الأمم المتحدة (2013-2017) إلى مديرة الوكالة الأميركية للتنمية الدولية في 2021، وكانت صعدت الدرَجَ السياسي عبر الصحافة الحربية في حروب يوغوسلافيا لتشغل مواقع المسؤولية في إدارات حقوق الإنسان في الحكومة الأميركية، خلال عهد الرئيس أوباما، ولها يُنسب إقناع أوباما بالتدخّل الحربي في ليبيا.

لا تقع لذلك قارئة التقارير الإنسانية عن الحروب على معنىً للأرقام التي تتراكم سوى السعادة بالنجاة أو الذنب بها، خاصة وهي تقرأ في الغالب من موقع لا يطالها فيه الأذى الحربي الذي يخلّف مثل هذه الأرقام أو في اتصال بشغل هذا الضرب من الصناعة؛ صناعة الإنسانية الدولية، وما يحيط بها من مؤسسات دولية وبيروقراطية ودبلوماسية. تتحايل مثل هذه التقارير على عقمها الشعوري بالصورة والرواية، خاصة إذا كان الغرض ما يُسمَّى في عرفها «المناصرة». وتختار في الغالب صوراً لعذاب

الأفراد ومعاناتهم، بصرية وسردية، تعرضها كلحم دميم، مثلها مثل سحجات وكدمات متحدّث «تقدم»، الذي قال لا يقوم الدليل «الإكلينيكي» على اغتصاب النساء إلا بها.

سرعان ما يُثلَم مثل هذا الترخّص في عرض المعاناة بغير حوض حيوي من الاجتماع والثقافة ليصبح بورنوغرافيا حربية، قد تُغري مشاهدتُها لكن لا تُورِث عبرة ولا معنى. مدار البورنوغرافيا الحربية جسد الضحية المكشوف، لحمها العاري من أثر الجوع أو الاغتصاب أو اختراق الرصاص أو القصف والحريق وصنوف لا تنتهي من الأذى؛ ووسيلتها، صورةً وسرداً، خبط فوتوغرافي، يُؤبّد لحظة سقوط الضحية ويكبت السابق واللاحق من الأجندة. فالضحية اسمٌ في محل الرمز، وعمر وإثنية ودين، أي هوية – خاصة إذا كانت هذه مسألة «المناصرة» – وجرحٌ خرج ولم يعد أوصافه كالآتي...إلخ. وكلما أوغل مثل هذا الجنس الفوتوغرافي، صورةً وسرداً، في التفاصيل أقتَمَ سطحَه «تظليل دوكو»، ربما لا يكشف سوى حركة شبحية، والعلة ربما ديالكتيك الجاني والضحية الذي بين قطبَيه الجناية.

كيف تَعرِضُ إذنْ، صحافةٌ دافعُها الحُبُّ والتضامن، الأذى الحربيَّ دون أن تتدهور إلى بورنوغرافيا للضحايا؟ اكتشفت الأستاذة ملاذ عماد في بابها «أصوات تحت الحصار»، ربما بفطرتها النسوية السليمة، سهلاً مُمتنعاً في هذه المسألة، لا تَعرِض فيه خلق الله كضحايا، عراةً من المعنى، وإنما تُذيع عنهم جهودهم البطولية لامتلاك زمام أمرهم في وجه قوى جبارة وذلك بعبارتهم ونحوهم وبلاغتهم دون تدخّل من ناحيتها ولا تعليق. فهي تحجب حتى أسئلتها التي تفتح بها باب الكلام، ربما «كيف، تمام؟» و«عاملين شنو مع الاشتباكات؟»، وتترك الميكروفون مباشرة ودون تسويف لأصحاب الشأن. فوق ذلك لا تعرض من هويات أبطالها شيئاً، إلا ما يتسرّب خلسة في سياق لقاء إخوةٍ في الإنسانية، جنس امرأة ورجل أو مهنة. تذيع الأستاذة ملاذ عماد، لله درّها، أصواتاً يوميةً من جغرافية حربية، وتُخرس بذلك النزع البورنوغرافي – ده منو؟ ماله؟ – لتحلّ محلّه أشاير الحياة النابضة. لا تقابل قارئة «أصوات تحت

الحصار» أبطال الحرب هؤلاء، في حبس الجاني والضحية، في انتظار أن ينفجر الرأسُ برصاصة أو ينهدَّ الدار على الأبدان بِدَانةٍ أو تُنتهك النفوس بعُنفٍ مُغتصِبٍ في تلك البرهة الفوتوغرافية؛ وإنما تقابلهم في سعيهم إلى الحياة وجريانِ الزمن. تقابلهم القارئة في سوق الشعبية «بشتروا كيلو لحمة عادي وصافي من الهادي بي خمسة وستة ألف»، أو في بيوتهم «وكت يكون في دانات كتيرة وبعملوا قراصة بسكر»، أو في المواصلات بين الحلة والصينية السوق المركزي أو في مداخل مستشفى الرازي والفؤاد، وقد أُغلقت أبوابها دون مرضاهم، وصارت مُحتكَرة لجنود الدعم السريع لا غير. حتى قتلى «أصوات تحت الحصار» لم تنقطع حياتهم بغير غرض، فهم أسياد عربات الكارو الذين قبَضَ عليهم الدعامة، وقتلوهم لكسرهم الحصار على الفتيحاب، بنقل المواد التموينية من الجبل عبر العُشرة.

والحرب التي تنقلها «أصوات تحت الحصار»، ليست حرباً عبثية بين جنرالين وكفى، كما في التصوير الكاريكاتوري الرائج، لكنها مقاومة من أجل الحياة، تدور في الأفران والدكاكين والطواحين والجزارات والأجزخانات والتكايا، يبدأ فيها اليوم بتدوين المدفعية مع صلاة الصبح ويمرّ عادياً جداً أحياناً: «المحلات فاتحة والبضاعة متنوعة، والناس تتحرك عادي لحدِّ المغرب، يسعى فيه عساكر الجيش أرزاقهم أحياناً بالبيع والشراء». فوق ذلك تكشف «أصوات تحت الحصار» عن قماشة مشتركة بين أبطالها حيثما كانوا، في مدن العاصمة وفي الأبيض وبابنوسة والجنينة والضعين والفاشر وود مدني وغيرها، في مقابل الموت الذي يتهدَّدُهم، موت الاجتماع، موت الحلة والأهل والأسرة والدفعة والأصدقاء بالدرجة الأولى ثم موت الفرد، قماشة ستر. ذلك في مواجهة قوة للموت المجاني: «رديت حتموت، اتلاءمت حتموت، قاويتهم في عربية ولا غنيمة ولا اتلايقت حتموت، كذبت عليهم حتموت، إتلولوت حتموت». ومن قماشة الستر هذه أحسن ما في «أصوات تحت الحصار»، ترجمتها للأمل كممارسة يومية، ليس هبة بين يدي دلالي سوق السياسة أو حرباً أخرى تَصدر أوامرُها مثل سامانثا باور لكن همة للجماعة، «طلع العيش، والناس طحنتو وانتهت، الفول حيكون طالع الأيام الجاية والقمح إتزرع الحمد لله قبل الضرب دا يبدأ».

أثر
الأسبوعية Atar
العدد (25)، الاثنين، 15 أبريل 2024م

أصوات تحت الحصار

القضارف والفاشر

15 أبريل 2024م

إعداد: ملاذ عماد

القضارف، 15 أبريل 2024

نحن في القضارف الوضع مريب شديد، في مستنفرين وجيش وحركات مسلحة وكيزان، كلّه في، بالإضافة للمواطنين والنازحين القاعدين في القضارف وكل القرى الحولها، حتى الخلا فيهو ناس نازحين زيَّنا، نحن الجينا من الخرطوم، وفي ناس جوا من مدني وسنار، لكن حالياً أكتر الناس البنزحوا يومياً هم ناس من الجزيرة، من كل اتجاهات الولاية، بسبب اقتحامات الدعم السريع، والغالبية أطفال ونسوان، عرفت من أسرة إنو طلعوهم كلهم، الأطفال والأمهات، وبس فضلوا الرجال حارسين بيوتهم هناك، وللأسف في موت كتير، لأنو ما عندهم سلاح ناري، معتمدين على السلاح الأبيض زي (السكاكين والعكاكيز)، وحاجات ما ممكن تقيف بيها قدام الدعم السريع.

الكهرباء لحدي قبل شهرين كانت بتقطع بصورة أخف شديد، تقريباً ربع ساعة، لكن ما عارفة دي حاجة عامة في كل القضارف ولّا لا، لكن حالياً رجعت القطوعات الطويلة يوم كامل، بتكون مافي والناس للأسف ما عندها قروش تشتري مولدات، ولا حتى ألواح شمسية بننتظرها ترجع بس، المويه أساساً كعبة وما متوفرة في كل أحياء القضارف من زمان الناس هنا، بيشتروا مويه، لكن آخر سنين دي بقى في محطات تحلية مياه مملوكة لأهالي القضارف، شغالين فيها استثمار ومصدر دخل أساسي لعدد كبير من الأسر القديمة، بعملوا تحلية لمياه الآبار، وبعد داك تتوزع بالكارو، في أحياء بتجيها مويه في المواسير من فترة لفترة.

التموين كان متوفر لحدي قبل أسبوعين، ما حصل شح في أي شي، لكن جات مُسيَّرة ضربت عدد من المباني، بعدها مباشرة كل الدكاكين والأسواق

قفلت حتى حركة الناس في الشارع قلت، لأنو الناس خافت، خصوصاً النازحين من مناطق فيها حرب حالتهم صعبة لأنو ما حيعرفوا يمشوا وين تاني، في ناس نزحوا تلاتة مرات من بدت حرب الخرطوم دي.

في عدد كبير جداً من المواطنين سفّروا النسوان والأطفال، وبدوا يتسلحوا سلاح تقيل، ويتدربوا في الحامية وفي مراكز الحكومة، زي محلات بسط الأمن والنقاط في الأحياء، التدريب واضح إنو عشوائي لأنو سمعنا إصابات كتيرة للناس في بيوتهم، بسبب رصاص طايش من المستنفرين، الجيش في حالة استعداد، لكن مافي مواطن مطمئن، وثقتنا قلّت شديد في الجيش، لأنو شفنا الحصل في الجزيرة، الجيش مشى وخلى المواطنين من دون حماية ولا سلاح.

الصيدليات لسه فاتحة، لكن غالباً بتقفل قريب، الناس بدت تنبّه بعض إنها تشتري أدويتها وتجيب تموين كفاية، لأنو أي زول بجي داخل القضارف بتكلم عن إنو الطريق للقضارف ملان قوات مسلحة، وفي ناس ما مفهومين جيش ولا دعم سريع ولا قبائل مسلحة، بس سلاح منتشر وتهديدات للمواطنين واعتقالات".

الفاشر، 15 أبريل 2024

"نحن في الفاشر شمال دارفور، الشبكة عندنا قطعت زي ما حصل في باقي الولايات، النت الوحيد الرَّجع ومستقر نوعاً ما هو نت سوداني، زين بدت ترجع لكن ضعيفة، وفي شرائح ما اشتغلت للآن، الكهرباء قطعت في 20 رمضان، وللآن مافي كهرباء، جابوها لينا في العيد يومين، وتاني ما جاتنا كهربة حكومة خالص، وناس الدعم السريع قاعدين جنب المحطة الرئيسية لتوليد كهرباء في الفاشر، وماف طريقة أصلاً الناس تتكلم معاهم أو تطلب منهم يصلحوها، أغلب البيوت اشترت ألواح شمسية، والباقين اشتروا مولّدات صَغيْرة، بتشحن التلفون وتبرِّد ليك المويه بس.

الموية مافي خالص، مع إنه جابوا وقود للمولدات، لكن ما عارفة ليه ما جات للآن، سمعت إنو الوقود كميته بسيطة، وما بكفي كل مولدات المدينة، وقرروا بدل يشغلوا الكهرباء يشغلوا الميه لكن أدونا بالتناكر ميه مَرَّة واحدة بس، وتاني العربات والمولدات وقفت، في اتجاهات ما جاتها ميه خالص، وناس وصّلوا ليهم زي برميلين بس وخلاص.

التموين كان بجينا من تشاد وليبيا عبر مليط، وكل الحاجات كانت متوفرة ما عدا أي شي كان بجي من الشرق ومن العاصمة الخرطوم، باقي الحاجات البتصل كانت (مكرونة، شعيرية، رز، دقيق)، الزيت متوفر لأنو بتعمل في المدينة، الأسواق المستقرة زي سوق المواشي الفي المنطقة الجنوبية للولاية، وسوق السلام، ودا سوق أسبوعي بشتغل الاتنين والخميس، وسوق أم دفسو بتجيهو الحاجات من كتم وجبل مرة، ومع الاشتباكات البتقوم دي يوم تلقى السوق ملان حاجات ويوم فاضي، لأنو الطرق بتتقفل فجأة.

المواطنين كلهم بقوا قاعدين غرب وجنوب الفاشر، ودي الحتات الفيها مراكز الإيواء والمعسكرات، المواطنين الأصليين زهجانين من النازحين وبتكلموا عن إنو في سلوك وتصرفات ما بتشبه المجتمع قاعدة تحصل، لكن ما عندي فكرة عن البحصل بالضبط، غايتو الحتات دي فيها زحمة ما طبيعية، ناس بأعداد كبيرة من الفاشر ومن برا الفاشر، وفي سلاح منتشر بطريقة مرعبة بين الناس، حتى الشفع الصغار كلهم مسلحين، الناس بتتحرك بالمواصلات لكن أي شي بقيف لمن الاشتباكات تبدا، بنسمع صوت الطيران، في منطقتنا ماف جيش كتير، لكن الأكتر هم الحركات المسلحة، عاملين ارتكازات والتعامل عادي للآن، مافي زول بسألهم أصلاً.
شي أخير عايزة أقولو، إنو نسبة الفقر زادت شديد، والموظفين مرتباتهم وقفت، والمنظمات بعد انسحبت وأجْلوا موظفينهم الما سودانيين، كل شي وقف، والناس فقدت مصادر دخلها".

مجلة تصدر أسبوعياً عن
مركز **سودان فاكتس** للصحافة

FACTSD
FACTS CENTER FOR JOURNALISM

نعمل على السودان،
من كل مكان

لاستلام نسخة (pdf) من المجلة أسبوعياً

على البريد الإلكتروني،
الرجاء مراسلتنا مرة واحدة على:
atar@sudanfacts.org

على WhatsApp أو Signal،
الرجاء إرسال رسالة تحوي كلمة «أتر» أو «Atar» في التطبيق على الرقم:
+254115438212

للانضمام إلى شبكة مراسلي أتَـر في السودان الرجاء مراسلتنا على:
correspondent@sudanfacts.org

@atarnetwork